

السوسيولوجيا ورهانات المؤسسة الجامعية في

الجزائر: إشكالية الموقع والدور

د . بن لعوج لطفي

جامعة عبد الحميد بن باديس - مستغانم-الجزائر

lotfibenlaouedj61@gmail.com

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الإرسال
2018/11/15	2018/09/24	2018/07/14

الملخص:

تعتبر عملية إعادة البناء روابط العلاقات في الحقل الأكاديمي أحد مهام السوسيولوجيا المؤسساتية، وليس الغرض من ذلك تغييب الجانب القيمي أو النسبوي لسلوك الإطارات السامية، بل هو إضافة المعنى للمتوج المعرفي في إطاره التاريخي، إن هذا السياق قد يمنحنا وضوحا لفهمه الخاص، فالمهمة جد معقدة لأن هناك معارف أكاديمية يغلب عليها الهدم وشكالية المعايير الخاصة بسياق التخصص أو طبيعة تموضع الفاعلين الاجتماعيين في مجال العلوم الاجتماعية.

الكلمات المفتاحية:

لا شرعية الرمزي؛ الهكسيس (الاستعدادات الملتحمة بالجسد)؛ المكانة الاجتماعية؛ الطلب الاجتماعي؛ خطاب المعرفة؛ سلطة المعرفة؛ المتدهن.

Abstract:

In the academic field reconstruct relational links one of the tasks of institutional sociology; not to depreciate or relativize the behavior of senior managers, but to add meaning to product

knowledge; to put it in a story, a context that will give a light; It is therefore difficult and difficult to understand because it is a question of academic knowledge that is strongly destroyed and formalized according to the current norms of the discipline and the disposition of the social actors in the field of social sciences.

Key words:

Symbolic legitimization ; bodily Hexis ; social status ; social demand ; discourse of knowledge ; power of knowledge ;intellectual.

الإشكالية:

لو تأملنا في حصيلة الأعمال السوسيولوجية في الجزائر ومنذ محاولات جفول والكنز إلى غاية قادي وحدا وباستثناء جزئي لأعمال "كولونا" يتضح لنا أن الفضاء الثقافي الجزائري الحديث الذي تكون ابتداء من عشرينات القرن الماضي، تجسد في ثنائية هيكلية مكونة من قطبين رئيسيين، يمثل القطب الأول في *الانتلجنسيا* التي تكونت داخل المنظومة التعليمية الفرنسية، بينما يمثل القطب الثاني في الفصل الآخر الذي زاول دراسته في الزوايا ليلتحق بالزيتونة أو القرويين بفاس، الأول مفرنس حديث، علماني، أما الثاني فهو معرب / تقليدي وديني - الأول يتجسد في المعلمين *les instituteurs* خريجي دارالمعلمين ببوزريعة والثاني في العلمانيين البادسين⁽¹⁾ وفي هذا السياق تستوقفنا أعمال "فاني كولونا" في كتابها: "آيات العصمة" أين ركزت فيه على "الحلّ الثقافي" وليس من منطلق المركز السياسي لتهمم بالعلاقة بين العلماء والطلبة في منطقة ريفية بالأوراس، لتأكد على ذلك التلاقي في التأثير المهيمن بين الاتجاهات الإيديولوجية، كما عرف التدريس في مجال العلوم الاجتماعية بالجامعة الجزائرية تقلبات عديدة، طبعت مسيرتها منذ 1962 - فإذا اتفقنا أن وظيفة الجامعة هي إنتاج ونشر المعرفة فإن هذه الوظيفة قد عرفت في حالة العلوم الاجتماعية ضغطا اجتماعيا

وسياسيا كبيرا، تمثل في التدخل المؤسساتي الذي حال دون احترام المقاييس العلمية في إنتاج المعرفة، إذ توجه كل الاهتمام إلى تحقيق مبادئ سامية تمثلت في الجزائر، التعريب وديمقراطية التعليم إذ لم يعد النشاط البحثي الخاص بكل أستاذ أساسا وقاعدة للتقييم والاعتراف بالكفاءة وبالمقابل بدا الاستغناء التدريجي عن الكفاءة الخارجية، التي سبق وتم الاستعانة بها في بداية الاستقلال، مما ترك فراغا ملحوظا في متانة التكوين، غير أن هذا كله لا يعتمد على الأفكار والأطروحات النظرية الماضية والحاضرة ومدى تأثير العالم والتفكير بها، بل يجب الاعتماد أيضا على الذاتية والتموقع داخل الفضاء الجامعي، ذلك الفضاء الذي يأبى أن يكون خاضعا ومنصاعا في تفكيره وعلمه وفنه للآخرين، لذا نلاحظ أن الأصالة هي وليدة المزج العقلاني والمحكم بين ما هو موضوعي وما هو ذاتي وفق سياق تغلب عليه المنطلقات الإيديولوجية والمؤسسية، كما أن الأستاذ يقوم بوظيفة بحثية ووظيفة بيداغوجية، فهو في حد ذاته بنية متفاعلة مع وحدات الجسم الاجتماعي من طلبة وإدارة ومجتمع وذلك وفق منطق الاحترام الأحادي وتفاقم مركزية الأنا آخذا الاعتبار بتلك السلبية من التفاعل اللامتوازن بين ذاته كفاعل اجتماعي وبيداغوجي والطالب هذا كله سيجعلنا نتساءل: هل بالفعل يمكننا القول أن الأستاذ الباحث في الجزائر خصوصا وفي الوطن العربي علي العموم وبالخصوص في مجال العلوم الاجتماعية، لديه الأدوات والرصيد المعرفي الكامل لأجل بناء سوسيولوجيا مؤسسية تواكب السياق الحداثي؟ بعبارة أخرى هل يمكننا العودة إلي الاستقراء التاريخي للتجربة السوسيولوجية في الجزائر لنفهم به واقعنا الاجتماعي ومنظومتنا المعرفية الأكاديمية؟ أم أن الأمر يتعلق بالطلب الاجتماعي؟ ما دور التدريس والبحث العلمي في بناء الصرح الجامعي والمجتمع وهل تطور سياق وبني المؤسسات الجامعية في الجزائر له دور في بناء

منظومة فكرية متكاملة تعكس النموذج المعرفي المنشود؟ وإن كان كذلك ما هي آليات واستراتيجيات تموضع الأستاذ الباحث في النسق الجامعي وما مدى انعكاس هذه الآليات على الواقع الاجتماعي والسوسيو مهني ؟

1- تجربة الممارسة السوسيولوجية في الجزائر:

يتم فصل تاريخ السوسيولوجيا في الجزائر حول مراحل أربعة كبرى :

- السوسيولوجيا الكولونيالية.
- سوسيولوجيا بيار بورديو.
- السوسيولوجيا النضالية : سنوات 1960 - 1980.
- سوسيولوجيا الحيرة والارتباك : 1980 - 2002 .

ففي هذا السياق يذكر جمال غريد (جامعة وهران) أن تراكم الأعمال الاجتماعية والتحقيقات الميدانية هو الذي أدى إلي تحديد الاتجاه السوسيولوجي سواء كان ذلك في العالم المحافظ أو العالم الحديث، وبعد أن أشار إلي التطور المؤسساتي في إطاره السوسيولوجي والذي يترك الانطباع بأن هذا العلم موجود فعلا، وأنه بخير، إنه يذكرنا بكلمة آرون *R Aaron* المازحة: *إن أشد ما نفتقر إليه السوسيولوجيا الفرنسية هم علماء الاجتماع أنفسهم، ثم يلخص لنا واقع السوسيولوجيا في العالم العربي والجزائر قائلا: إن أشد ما نفتقر إليه نحن - علماء الاجتماع العرب نحن : هو علم الاجتماع ذاته*⁽²⁾، ففي سياق آخر تم استعمال مصطلح السوسيولوجيا *sociologie* في الجزائر مع بداية تاريخ ترسيخ المدرسة الدوركهايمية في فرنسا والاعتراف بها، وظهر من حيث الاستعمال مع دراسة م. سباتي *M. Sabatier* سنة 1884م وقد حملت هذه الدراسة عنوان *"السوسيولوجيا الأهلية" Sociologie indigène* ثم *"سوسيولوجيا الإسلام"* والبربر *"و"السوسيولوجيا في*

الجزائر"⁽³⁾، حيث عملت السلطات الفرنسية على دراسة البناء الاجتماعي للشعب الجزائري عن طريق مجموعة من العملاء والباحثين السوسيولوجيين والأنثروبولوجيين والضباط الأكاديميين، بغية تفكيكه وتقسيمه، غير أنه في الحقيقة لم تكن كل الدراسات السوسيولوجية في الحقبة هذه موجهة لخدمة مصالح الاستعمار، حيث تستوقفنا العديد من الدراسات السوسيولوجية الجادة كأعمال "j-Berque" (1910-1995) حيث ترك ما يزيد عن 43 مؤلف وما يقارب (200) مقال ورغم قيامه بمهام في الإدارة الكولونيالية، إلا أنه استطاع أن يضع قطعة مع الأيديولوجية الاستعمارية،⁽⁴⁾ كما أخذت الدراسات مع بداية عشرينات القرن العشرين طابعا أكاديميا صرفا، يرجع الفضل في هذا التوجه إلى أحد رواد المدرسة الدوركهايمية وهو رينيه مونيه R-Mounier الذي كان يشرف على دروس في علم الاجتماع بكلية الحقوق في جامعة الجزائر- تحت عنوان "الاقتصاد والسوسيولوجية الجزائرية" وبعد ثلاثين سنة من هذا التاريخ أي في سنة 1956- نشر "جاك بارك" في مجلة "حوليات" مقالا مكثفا تحت عنوان: "مئة وخمسة وعشرون سنة من السوسيولوجيا المغاربية، ليركز بذلك على الحبكة الموضوعية على غرار الاختصاص،⁽⁵⁾ كما نجد حوليات الجزائر "لبلسي دورينو"، التي أعدت سنة 1854م فهي من أهم المتون الإحصائية التي يمكن الرجوع إليها لرصد القاعدة التأسيسية للعلوم الاجتماعية في الجزائر ومعارفها ذات العلاقة الخاصة بالحاجة الأيدولوجية للكولونياليتين، لتولي هذه المعرفة الأهمية القصوى لقانون الأراضي على حساب الوسط الإنساني وهذا ما جعل اهتمام ضباط الجيش الفرنسي في السنوات الخمسين الأولى للاحتلال، بإنتاج المعرفة المتعلقة بنقاط ضعف الخصم وقوته المادية والمعنوية المتعلقة بالاعتقادات، إلى أن هذا لا يعني عدم استحضار المنحى الأنثروبولوجي من ناحية المقاربة النظرية، لأن

بعض المصطلحات كالاثنوجرافيا الإنسانية كانت الأكثر شيوعا في الدراسات الوصفية للممارسات الاجتماعية وكذا مصطلح اثنوجرافيا المقارنة التي كان يعبر عن الممارسة السائدة آنذاك،⁽⁶⁾ وعلى غرار هؤلاء نجد مسكراي "masquerai" الذي عاش في فترة ما بين : 1883-1994 والذي كان يدير مدرسة الآداب العليا في الجزائر، فلقد كان هذا الأخير رائدا من رواد المدرسة الانقسامية التي جمعت بين تحليل الميكانيزمات الداخلية والظواهراتية للمجتمعات وعلى العلاقة القبليّة واعتبرها خصوصية اجتماعية مغاربية ... كما قام مسكراي بدراسة مختلق القبائل والعروش الجزائرية من عرب وقبائل وميزاب وذلك بالتقرب منها والإقامة مع سكانها، كمنطقة ميزاب التي مكث فيها الأكثر من شهرين، فباستعمال أسلوب المخادعة ارتدى لباسهم وتكلم لغتهم، فكانت أهم أعماله أطروحة بعنوان : *formation des élites* حيث بين فيها أن المجتمع البربري متكون من طبقات ترتكز أساسا على التضامن، كما حللت أسباب التلاحم وقوة المقاومة،⁽⁷⁾ وهذا ما سمح ب بروز اتجاهات ثلاثة داخل السوسيولوجيا في العالم العربي عموما والجزائر على وجه الخصوص:

- اتجاه خلدوني: يذهب إلى تفسير الاجتماع العربي من خلال العصبية المذهبية والعرفية وغيرها.
- اتجاه إسلامي: يعتمد على الفهم الإسلامي للمجتمع من خلال الشريعة والسلف ومبادئ السلوك الإسلامي وهذا الاتجاه منقسم، بين مدارس عديدة بالتوازي مع الانقسامات الفقهية العديدة.
- اتجاه وضعي: يكرس للفلسفة الوضعية التي أتى بها /كونت، كما يدرس الفعل الاجتماعي في إطاره العقلاني.

لقد أولت الجزائر منذ السنوات الأولى من بعد الاستقلال 1962م البحث العلمي والتعليم بكل مراحله أهمية خاصة، لا يضاهاها سوى ذلك المشروع التنموي الذي أكدت عليه كل المواثيق ابتداء من ميثاق طرابلس 1960م إلى الميثاق الوطني 1976م والذي أسند إلى المنهج الاشتراكي كردّ فعل طبيعي على ما يزيد عن 132 سنة من الاستعمار⁽⁸⁾ وعليه لم تتمكن السوسيولوجيا من التطور في الجزائر إلا في مرحلة الستينات وهنا يكشف و يؤرخ السوسيولوجي "عبد المالك صياد" بالتنسيق مع بيار- بورديو بشكل دقيق، للبحوث الميدانية الأولى في عام (1957-1958م) وتناولت تلك الدراسات الميدانية: الشغل- السكن- والاستهلاك في الجزائر، لكن هذا الموروث الكولونيالي استدام بعد ذلك بسنوات، فأول عميد لجامعة الجزائر بعد عام 1962 م كان *أ. مندور* الذي انحاز إلى جانب استقلال الجزائر ثم تبعه *ش. أ. جوليان ch-a.julien* المؤرخ الفرنسي الآخر الذي استدعاه الملك محمد الخامس، فمن منطلق هذه المرجعية بدأت مؤسسات البحث الجديدة ترى النور، حيث تمت مناقشة أول أطروحة دكتوراه دولة، كما تم إنشاء الجامعة الأولى في الجزائر حيث تعود إلى عام 1908،⁽⁹⁾ حينها استمدت الجامعة الجزائرية مرجعيتها الخاصة من العالم الغربي، تجسيدا لمبدأ الديمقراطية التعليم ووصولاً إلى بناء جهاز علمي قادر على مواكبة ودعم تلك المشاريع التنموية الضخمة وهذا ما جعل عشرية السبعينات من هذا القرن في قمة ازدهارها،⁽¹⁰⁾ وفي هذا الإطار كان ب. بورديو ورفيق دربه بارسونز وآخرون يقدمون مداخلاتهم في جامعة الجزائر، بينما استدعى إصلاح التعليم العالي في عام 1971م وضع حدّ نهائي للجامعة الكولونيالية وذلك بإنشاء جامعة موجهة صوب حلّ لمشكلات الوطنية كهدف مباشر لتكوين إطارات الإدارة والتنمية، فمنحت الأولوية للعلوم والتقنيات، مما جعلت عملية الإصلاح توجه مجموعة البرامج البيداغوجية الكلاسيكية،

حيث صارت شهادة ليسانس علم الاجتماع تنظم في شكل مقاييس عبر ثمانية سداسيات، وفقا لمقاييس والمضامينها المقررة بواسطة مرسوم وزاري في 10 حزيران/يونيو 1974م حيث كانت الفروع المتوقعة هي: فرع سوسيولوجيا العمل، السوسيولوجيا الريفية والحضرية، سوسيولوجيا التربية والثقافة، ففي السياق ذاته تتوج مرحلة التعليم لما بعد التدرج بمناقشة رسالة ماجستير، ثم دكتوراه دولة،⁽¹¹⁾ إلا أنه وبرغم من هذه الإصلاحات ففي الداخل هناك القوي الرجعية القديمة منها والجديدة وهناك القوي الثورية الهدامة التي تريد قلب الأوضاع رأسا على عقب، بدون رعاية القيم الروحية لشعوبهم وهناك الفئات التي درست في الخارج وعادت إلى بلدها غير مقتنعة بطراز الحياة التي نشأت عليه، أما من الخارج فالعقائد الماركسية من جهة والمصالح الغربية من جهة أخرى، كلها جعلت من الجامعة الجزائرية خاضعة لمنظوم معرفية مؤدجلة.⁽¹²⁾

2- الجامعة الجزائرية بين خدمة المجتمع والتكريس للهيمنة المؤسساتية:

لقد جري الإصلاح الجامعي على تخصيص الجامعة بمهام ثلاث: أولها: التدريس وثانيها: البحث، وثالثها: الخدمة العامة أو ما يطلق عليه في جامعاتنا خدمة المجتمع الذي أصبحت مهمة مؤسساتية هامة لرسالة الجامعة ومن المنظور المنطقي للحوار بين الجامعة والمجتمع حيث يفرض التحليل جملة من التساؤلات الخاصة بمهمة التدريس، أولا حول من هم الذين يلتحقون طلابا في الجامعة ؟ ماذا نعلمهم ؟ ومن يعلمهم ؟ ولماذا يتعلمون ؟ ونفس الشيء فيما يتعلق بمهمة البحث وخدمة المجتمع، حيث تدور هذه التساؤلات حول: ما طبيعة العلاقة بين تلك المهارات والأوضاع السياسية والاقتصادية

والثقافية في أي مجتمع من المجتمعات؟⁽¹³⁾ وهنا كان جديرا بنا أن نتبصر ذلك الدور الذي تلعبه الجامعة في خدمة مجتمعها وتطوره ورفع مستواه في جميع النواحي الحياتية، على درجة قربها منه وعلى درجة تعلقها به وشعورها وإحساسها بالآلام وأمانيه وعلى ذلك يجب أن لا تكون الجامعة كيان فوق المجتمع، بل ينبغي أن تكون جزءا منه ومن ثمة يجب أن لا تعمل على خلق طبقة الشهادات وكأنها تمنح امتيازات بالألقاب أو الأسماء فقط، فمتى انفصلت الجامعة عن مجتمعها انهار دورها المتميز في البناء وأصبحت صرحا هداما يعمل بشكل عفوي أو بشكل مقصود ضد بناء مجتمعها وتنميته ورقية بالعلم والمعرفة، فلا تظهر آثارها إلا بعد أجيال عديدة من توزيع خرجيها،⁽¹⁴⁾ فحينما تنفصل الجامعة عن المجتمع بأن تسبقه مثلا في اتجاهات التفكير أو أن تتأخر عنه تحت ضغط عوامل الجمود الاجتماعي من سلطة حاكمة أو رجال مال، سيجعلها تتراجع على مستوى التطور الاجتماعي، خاصة في المراحل الثورية أما الجوانب العلمية والفنية - فقوى التطور الاجتماعي قد تضيق هي الأخرى بالقوى الاجتماعية ومعنى ذلك أن الجامعات صارت أكثر ارتباطا بالكيان القومي: التنمية الاقتصادية والتطور الاجتماعي وبالأزمات الفكرية التي تسود المجتمع وذلك بارتباطها المتعلق بالمؤسسات- ليس فقط باعتبارها مجمعا لأفراد من العلماء والطلاب وهنا وجب أن نتساءل- ماذا يحدث من خلال هذا الارتباط؟⁽¹⁵⁾ وكم من الأساتذة الممتازين من أعزتهم المناصب فتركوا العلم وراءهم ظاهريا ودخلوا معترك السياسة وذلك لسببين على الأقل: أولهما أن مقام الأستاذ الجامعي والمادي لا يزال غير مغر وثانيهما أن الجسم السياسي عندنا لا يزال هزيلا، فبحكم الظروف يستعان برجال العلم والثقافة،⁽¹⁶⁾ فالجامعة في أيامنا هذه لم ينتظر منها أن تقوم بثلاثة أدوار: التدريس، البحث العلمي وخدمة المجتمع، فالدورين

الأخيرين لا يقل أيا منهما أهمية عن التدريس، بعبارة أخرى هناك حالة من اللامؤسسية *désinstitutionalisation* الخاصة بالفضاءات المعرفية الاجتماعية، التي تدرك وتنتج معاني ومعرفة موضوعية، مع تشبثها بنوع من الحياد القيمي، لتضع الأولوية للجانب الإداري على حساب البعد البيداغوجي في تسيير الجامعة الجزائرية، بعبارة أخرى هي وضعية تعبر عن لا شرعية الرمزي *délégitimation symbolique* مع فقدان هيئتها الاجتماعية وعدم قدرتها على التحرر وبالأخص في تعددها واتساعها في اختيار مواضيع الدراسة حيث تشكل حالة من الاغتراب الذهني "التفريغات الإيديولوجية" مع بروز ذلك الاختلال الوظيفي، فتجعلها مرتبطة بثلاثة مبادئ :

- 1- زيادة في تدرج المكانات (يظهر على شكل نمط تدرجي).
- 2- قواعد يفصل فيها تظهر لنا هذا التمهيد بين الأنماط وتأمينه.
- 3- يكون هذا بتقسيم العمل ومحصلة لاستقلال داخلي يخص المؤسسة الجامعية⁽¹⁷⁾

فمن ثم فإن الانضمام إلى المؤسسات هو السبيل الوحيد أمام فئة المفكرين للدخول إلى وسط النخبة على الصعيد المحلي وامتلاك سلطة ذات تأثير واضح داخل هذا الوسط، إلا أنه قد دأب صيت العديد من المفكرين والفنانين في الجزائر باعتبارهم من المعارضين داخل ما يمكن أن نطلق عليه اسم وسط النخبة المضاد ... كما أن نظام الحكم السياسي والإداري والاقتصادي ووفقا للنظام الرأسي الطبقي المركزي قد حد من تكوين عناصر ديناميكية محلية على المستوى الأفقي، مما قلل من تكوين رؤوس الأموال على المستوى المحلي وقد أوضح إبراهيم صالح في نص موضوعه حول تطوير كوادرو ونخب ولاية تيزي وزو أنه بعد مرور حوالي عشر سنوات لم يشهد خلاله هذا الإقليم

ظهور صفوة محلية لها أهمية تذكر، حيث لم يكن يمتلك بعض هياكل التأهيل والتوظيف اللازمة للوظائف رفيعة المستوى، ليتبدل الحال بعد ذلك في أول منتصف السبعينات حيث أسفر عن إنشاء قطاع عام صناعي يرفعه منشآت جامعية،⁽¹⁸⁾ هي إفراتات مؤسساتية أكثر منها نموذج معرفي أو منظومة فكرية، اعتبرت العلوم الإنسانية والاجتماعية بعد الاستقلال في الدول المغاربية وفي الوطن العربي بمثابة "علوم خطيرة" وبالتالي تم إخضاعها للمراقبة فواجهت السلطات العالمية من منظور عقلنة / تكنوقراطية، حيث انصبت جهودها نحو الشعب وفقا لتوجهات تقنية وتكنولوجية، فقامت بتكوين أجيال من المهندسين، لتمنح الأولوية للتخصصات العلمية التي اعتبرتها متوافقة مع الايدولوجيا التنموية وهذا ما جعل كبار الدولة من أصحاب التخصصات التقنية يحملون نظرة سلبية جدا حول العلوم الإنسانية والاجتماعية،⁽¹⁹⁾ ففي هذا الإطار يقوم النموذج الدراسي العربي عموما والجزائري خصوصا في الفخ الايديولوجي المنصوص له، فهو ينطلق من ناحية أولى وفي ذهنه صورة وحيدة ممكنة للشكل التنظيمي المؤسسي الجامعي التي هي بالتحديد صورة الجامعة، كما أسست تاريخيا في العالم الغربي وعلى أساس وحدانية هذا التصور، فيتم تفريغ الجامعة العربية من بناها المجتمعية الأصلية فتتحول إلى شكل تنظيمي يتواجد في كل المجتمعات ومن ناحية ثانية دون أن يستوقفه الأمر غياب العلاقة بين الجامعة والمجتمع وافتقار الجامعة لوظيفة الخدمة المجتمعية، في حين يؤكد النموذج الدراسي العربي على وجود أفكار من نوع: "انفصام كامل بين "الجامعة والمجتمع"؛ "انعزال الجامعة عن محيطها"، جامعات فاقدة لقدراتها على تلبية حاجات المجتمع"،⁽²⁰⁾ وفي هذا السياق نرى من يقدم النصح للشعوب العربية لكي تحقق ثروات طائلة عن طريق أنشطة اجتماعية (خدمائية) لا إنتاجية مما يرسخ الهواة الحضارية

والمعرفية ولنا أن نسأل حياة الريع وإن حققت ثروات طائلة من نفط وسياحة، أي فكر تنتجه وتحتاج إليه؟ ماذا عسى أن يشغل العلماء من قضايا علمية وماذا عسى أن تهتم به الجامعات ومؤسسات البحث العلمي؟ فمرة أخرى الفكر الاجتماعي نشاط أو منتج اجتماعي يعبر عن حاجة اجتماعية أو استجابة لها، متطور أبديا على شكل جهد إرادي متكيف،⁽²¹⁾ كما أن تغيير المركز المتوتر للوضعيات التشريعية والقانونية، يشكل نوع من الاختلال في التوازن على مستوى التأطير وبكيفية يستشكل لدينا: تغيير الفرق بتغيير المسؤولين، فهذا الاستقرار البنيوي للإطارات يعبر عن مرونة في موقعهم ويتبع ذلك تمثل معيق للدولة ففي سياق وعيها، الدولة تقوم بهدم وتخريب، حيث يتم أحيانا مقاطعة الكفاءات⁽²²⁾ علي شكل مسافة يأخذها السوسيولوجي الباحث بالنسبة للقطاعات العمومية العريضة وبذاتية المرجعية إلى العالم الأكاديمي الذي يتسلح بقواعده ومعايره الخاصة والموجهة نحو البحث عن الفهم وعن العرفان والتكوين والتأسيس وهنا تراودنا فكرة البحث عن كمال القدرات أو الجدارة المهنية أو عن النجاح الاقتصادي بقدر ما نبحت عن التطوير المتكامل للقدرات الكامنة والقوى الخلاقة لدى الإنسان فتعتبر ثنائية التكوين والمؤسسة بعيدة كل البعد عن التوافق، فلكي يدخل عالم الاجتماع إلى العالم الأكاديمي كان عليه أن يقطع طريقا طويلا من الأهلية والممارسة مع الاعتراف له من الآخرين وهو ما يتيح له العمل في وسطه الأكاديمي وأكثر من ذلك فهو عالم متمأسس بقوة (جامعات، مراكز أبحاث...) حيث يجب عليه أن يحصل على اعتراف مؤسساتي لتجنب الاغتراب⁽²³⁾.

❖ الأستاذ الباحث - الموقع ولعب الأدوار:

في إطار الحقل الأكاديمي السوسيولوجي تتجلى لنا أربع نماذج مثالية من علماء الاجتماع / المتذهن / الأكاديمي، عالم الاجتماع الاستعراضية في وسائل

الإعلام، وتقابلها أربعة مقاربات علمية (النزعة الأكاديمية، عالم الاجتماع، الوسائل الإعلامية، الخبرة السوسيولوجية، الناقد في تقليد *M Weber* فهذه النماذج ليست صورا اجتماعية تفضل التغيير ولا سلطات معيارية مطلقة، إنها تتناسب مع أربعة طرق في التموضع داخل المجتمع وأربعة أنماط للاعتراف: عالم الاجتماع "العالم المتذهن أو المنظر" *"intellectuel"* عالم الاجتماع الاستعلامي الاستعراضي وأخيرا الخبير⁽²⁴⁾، فلو أخذنا علي سبيل المثال النموذج الجزائري وبالأخص بعد الفترة الاستعمارية حيث بدأت بوادر النزعة الطبقة تتجلى في سياق معرفي يكرس لايدولوجيا الدور والمصالح، فتوزيع الأدوار على مستوى المخابر البحثية كان ولا يزال يكرس للنزعة العلمانية، هذا مع العلم أن الطبقة السائدة تخضع بدورها لمنطق تقسيم العمل بين العمل المادي والعمل الفكري، بحيث يكون أمانا فريقان من الأفراد داخل هذه الطبقة نفسها، فئة منهم تستخدم مفكري هذه الطبقة كأيديولوجيين فاعلين قادرين على الارتفاع من مستوى النظرية إلي مستوى أعلي من الإجراءات ، فتتشكل حياتهم من الوهم التي تكونه هذه الطبقة عن نفسها، في حين أن الآخرين سيكون لهم موقف أكثر سلبية، موقف التلاقي لهذه الأفكار الوهمية⁽²⁵⁾ وهنا تستوقفنا إلهامات *موسكا* الذي يؤكد هو الآخر على الانتباه الخاص للمدى الذي يتقاطع أو يتداول فيه أفراد النخبة في مجتمعاتنا وبالأخص من أي موقع *نخبوي* إلى آخر ومتى كانت هذه التقاطعات والتداولات كبيرة*، كان بإمكاننا تشكيل نخب مجتمعية لنخبة واحدة كبرى سماها *موسكا* اسم "الطبقة الحاكمة" وسماها *ميلز* *"Mills"* اسم "نخبة القوة" حيث يتواجد هذا الأخير بصفة شكلية فقط ما لم يتبين أن أفرادها يترابطون مع بعضهم ويتشاركون تطلعا معينا للقوة والنفوذ،⁽²⁶⁾ كما أنه ومن خلال التساؤل عن طبيعة العلاقة بين "سلطة المعرفة" المفترضة في خطاب البحث العلمي وبين السلطة

السياسية القائمة في المؤسسات الحكومية ومراكز النفوذ والمال في المجتمع، تقع سلطة المؤسسات العلمية من جامعات ومعاهد، فكيف تجري العلاقة أو "اللا علاقة" بين هذه المستويات؟* أو بتعبير آخر: كيف يضع القرار في البلاد العربية وهل ثمة من دور للبحث وللباحثين ولمراكز الدراسات في صناعة القرار؟ فمن خلال التساؤل عن "موقع الإنسان الباحث" فمنتج ومستهلك ومواطن ذي حاجات مادية، بل ذي حاجات نفسية ومعنوية وثقافية⁽²⁷⁾ ومن منظور آخر يناقش A.gouldner هذه القضية ليعلن عن وجود علم الاجتماع متحرر من القيمة مع تأكيده استحالة وجود هذا الأمر، فقد حاول أن يدلل على هذا بتأثير الأيديولوجية على الأعمال السوسيولوجية سواء كانت نظرية أو بحثية ميدانية وفي هذا الصدد كرر وتبنى السؤال الذي طرحه "هوارد بيكر" في جانب من نقف؟ *"who side are we on ?"* مشيراً أنه من الصعب علينا أن تأخذ موقفا عادلا محايدا بين المسيطرين والخاضعين - إذ لا بد تبني موقف واحد منهما،⁽²⁸⁾ كما يمكن قول: إن البحث كعملية إنتاج المعرفة هو "رأس مال رمزي" فعلا، لكن في ظل العلاقة الاجتماعية والثقافية السياسية السائدة في المجتمع تقلص قيمة هذا الرأس المال إلى الحد الأدنى، بعبارة أخرى إن المواقع السياسية والاجتماعية والاقتصادية النافذة - حكومية كانت أو أهلية أو مدنية - قلما تحتاج إلى نوع من المعرفة الذي يقدمها "خطاب المعرفة" في العلوم الاجتماعية والإنسانية، كما يمارسها أغلب الباحثين العرب في جامعاتهم ومراكز دراستهم وفي هذا السياق ومن زاوية يقول الدكتور علي الكنتر في دراسته "معطيات لتحليل الأنثولوجيا في الجزائر": "فالمثقفون الذين يعيشون في وسط مغلق لا يكونون أنثولوجيا وذلك مهما كان ثراء إنتاجيا إذا لم تعرف المعرفة المتراكمة فعلها في النظام

**الدلالي الرمزي للمجتمع"، بعبارة أخرى فهم ثم أجرت البعد البرجماتي
للخطاب القائم في إطاره العقلاني الأكاديمي والغير منمدج.⁽²⁹⁾**

فالموقع هو بنية هندسية تترتب فيها العناصر حسب منطق التمييز والخاصية، فكل عنصر يمتلك حيزا خاصا يتميز به عن غيره من العناصر ويتحدد بمسافة التي تفصله عن العناصر المجاورة، كما أن الموقع يتميز بالاستقرار خلافا للمكان، فالحركة هي التي تمنح للموقع "طابعه المكاني" أي تملئ حيزه الهندسي بالشكليات الأدائية، إذ يصبح الموقع مكانا، أي فضاء واقعي إذا لم يتم ملؤه بالوظائف التي تتوزع على أبنيته،⁽³⁰⁾ لذلك وحدها "الطوبولوجيا الاجتماعية" تسمح بعرض وضعية كل فاعل لموقعه مع المواقف التي يتخذها، مهما كان الموضوع بمعنى أن نفهم إستراتيجيته للتمييز والاستثمار تبعا لموقفه، ذلك الموقف الذي يعبر عن القوة الرمزية وعلى موقع أولئك الذين ينتجون هذه المواقف ويشغلونها، ووحده تحليل الموقع يسمح ببناء وجهات النظر وهذا الشكل أي بوصفها نظرات جزئية انطلاقا من نقطة المواقع *situs* داخل الفضاء الاجتماعي،⁽³¹⁾ فالمنتجات الثقافية تدين بخصائصها الأشد نوعية إلى الشروط الاجتماعية لإنتاجها- بعبارة أخرى إلى المواقع المنتجة في مجال الإنتاج الذي يسير في آن واحد وإن يكون خلال مسارات وسيطة متشعبة فليس المصلحة التعبيرية فقط وشكل وقوة الرقابة التي تؤثر عليها، وإنما القدرة على تلبية هذه المصلحة ضمن إطار محصلة هذه القوى، فتمنعنا العلاقة الجدلية المؤسسة بين المصلحة التعبيرية والرقابة البنيوية للمجال من أن نميز في إجراءات العمل (الشكل عن المضمون) بفرض الشكل تحدد الرقابة التي مورست بواسطة بنية المجال وشكله الخطابي،⁽³²⁾ فيستثمر الفاعل موقعه إجرائيا وتباعا، إنه ملتحم به (مجموع الاستعدادات العملية أي الهابيتوس، الملتحم بالجسد *hexis-corporelle* ليملك حوله معرفة عملية غير

منعكسة بشكل أو بآخر بحيث يتميز بهابيتوس نوعي والذي يحوزه على النمو ذاته، إنه مهياً لهذه المكانة لأنها موضوعة له بموجب "قانون التوافق" بين بنيات الحقول والهابيتوس وبين مواقع الفاعل واستعداداته⁽³³⁾، فالجامعة ولو أنها مؤسسة تعليمية ومركز بحثي ومنارة للإشعاع الثقافي فهي تعكس ذلك المستوى الحضاري وتدعو لتقدمه، إلا أنها ليست موضعية الأهداف، محدودة المقاصد، فهي نظام ديناميكي متحرك، الكل متفاعل العناصر على شكل مجتمع بشري متفاعل، ينفعل بظروف حركته وبظروف التفاعل الحاصل بين أفرادها، فكلما كان هذا التفاعل نشطاً إيجابياً كلما كان أكثر تماسكاً واستقراراً مع اكتسابه قوة تتجلى في مزيد من القدرة على الفعل والتأثير، فإذا هدا التفاعل أو برزت عناصره السلبية ظهر ميله للتفكك.⁽³⁴⁾

إلا أنه وبالرغم من صلابة الحجة البوردويزية تبقي هي الأخرى قاصرة، إذا ما أسقطناها على النموذج الجزائري وبالأخص في مرحلة ما بعد الربيع البترولي، فما يحدث اليوم على المستوى الأكاديمي يتجاوز الطرح السوسيولوجي لمؤسساتي ليتجه إلى مسار ومقاربة مغايرة، يهيمن عليها البعد الثقافي والمؤسساتي، بعبارة أخرى تتمايز تلك الأبعاد والبني والتموقعات الاجتماعية على المستوى المؤسساتي في سياق تاريخي يعكس تحولات البني المعرفية في الجزائر لتتشكل أربعة أنماط ثقافية: النمط التدريجي / النمط الفر داني / النمط المسا واتي / النمط القدري، ففي مرحلة سابقة وبالأخص في مرحلة السبعينات من القرن السابق، كانت هذه الأنماط حاضرة ولكن النصيب الأكبر كان للنمط المسا واتي بحكم أن تلك الفترة كان الحقل الأكاديمي يعرف ما يسمى ديمقراطية التعليم، أما النمط التدريجي والفر داني غلب عليهما التوجه الاشتراكي، أما فيما يتعلق بآخر الأنماط فكان مغيباً، لكن وفي المقابل ففي سياق مرحلة ما بعد الربيع البترولي الأمر يختلف تماماً- لقد

بدأت تظهر بوادر توجه جديد نحو سوسيولوجيا جزائرية اقتصادية تهتم بالطرح المقاولاتي كطرح بديل لتجاوز أزمة الربيع وهنا يستشكل علينا أمر آخر، بحكم أن هذا التوجه قد يعزز حضور النمط المغيب سابقا ألي وهو النمط القدري بقوة، لأنه لاحظ غياب مصالحه الخاصة بوجود ذلك التحالف القوي بين النمط التدرجي والنمط الفردي - الأول يساهم بحضوره التنظيمي أو التكنوقراطي أما الآخر يساهم بحضوره المادي ويكون ذلك علي حساب النخب المساواتية - النخب السوسيولوجية - التي تم جلبها رمزيا وماديا مع سلبها لمجالها السلطوي، بالطبع هذا سيمهد لبروز تكتل قوي من الناحية التنظيمية لكنه مفرغ من الناحية الأكسيولوجية.

الخاتمة :

لقد مرت التجربة السوسيولوجية في الجزائر بمراحل جد هامة، فهي فعلا تعكس ذلك الواقع الاجتماعي الذي ساد في حقبتين حقبة ما قبل الاستقلال وحقبة ما بعد المرحلة الكولونيالية حيث انتهجت المرحلة الثانية منعرجا حاسما في سياق البناء الاجتماعي للدولة الجزائرية إلا أن هذا البناء اصطدم بعدة عوائق ذات دلالات ابستمولوجية ومؤسسية فالتغيرات الطارئة علي المؤسسة الجامعية الجزائرية تحدد بعدة نقاط أولا تتعلق بإشكالية الهيمنة ولعبة الفاعلين الاجتماعيين من نخب وطلبة وفيها نلتمس ذلك الصراع القائم بين الأجيال الذي كان له انعكاس كبير علي المنظومة التعليمية من جهة وهيكل الإدارة الجامعية من جهة أخرى أما النقطة الثانية فهي تتعلق بالوضعيات التي يتخذها الأستاذ الباحث داخل الجسم الاجتماعي وآليات المواجهة المتمثلة في العملية التواصلية بما فيها طرق التدريس والمناهج وذلك لفك لغز التبعية للتيارات الوضعية وهذا ما لا نلتمسه فعلا في منظومتنا الجامعية كما أن المواقع والأدوار لا تعكس الرهان الوظيفي لجهاز الدولة كآلة

تكرس لثنائية الشرعية والعقلانية ليس فحسب من الناحية المؤسساتية بقدر ما تكون شرعية لها دلالات سوسيو ثقافية ومعرفية أما النقطة الأخيرة تتمثل عملية الفهم وعلاقته بالواقع، فوظيفة الأستاذ الباحث لا تتوقف علي تلقين المعلومات أو ذلك الزخم من المراجع المستهلكة كميا بقدر ما يكون بتحرر علم الاجتماع من النسق الضيق الذي يستبعد الميدان وإقحامه في متغيرات تعكس التوجه العالمي لمنظومتنا الاقتصادية والتربوية، ليكون طرح بديل علي المستوي الفعل التعليمي والعمل البحثي والتنسيق بينهما في إطار ما يسمى النمذجة الاستمولوجية، فمجمل القول حالة العلوم الاجتماعية في الجزائر تحتاج تمحيص ، فنحن بحاجة إلي فهم لغة التواصل من الناحية البيداغوجية والتقنية المؤسساتية ووظيفية يجب أن نعيد التفكير في التوقعات والوضعيات الجديدة التي تخدم الأستاذ الباحث والطالب في آن واحد، كما يجب أن نؤسس لإستراتيجية معرفية تتماشى مع الوضع الاقتصادي التي تعيشه البلاد.

قائمة المراجع والمصادر :

- 1- مجموعة من الأساتذة . النخبة الاجتماعية - حالة الجزائر ومصر، مركز البحوث العربية الإفريقية ، تميمون، الجزائر: 2002، ص261
- 2- عبد القادر لقجع وآخرون. علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر: أعمال الملتقى الوطني حول علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر، أية علاقة؟ وهران، أيام: 4- 5- 6 / ماي - 2002، ص18
- 3- بن عودة محمد .التجربة السوسيولوجية في الجزائر- دراسات وأبحاث اجتماعية benouda@live.fr ، 2012 ، ص04
- 4- الزبير عروس . مدخل إلى تاريخ الممارسة السوسيولوجية وواقعها: المدرسة الجزائرية نموذجاً - مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت لبنان، ص267
- 5- بن عودة محمد. نفس المرجع السابق، ص03
- 6- الزبير عروس. نفس المرجع السابق، ص ص. 266-267
- 7- بن عودة محمد. نفس المرجع السابق، ص04
- 8- البخاري هانة. التنمية والبحث العلمي في المغرب العربي- الجزائر نموذجاً- حوليات الجامعة للبحوث الانسانية والعلمية ، وهران: العدد 03 / 1996، ص86

- 9- بوخريسة بوبكر. السوسيولوجيا المغاربية بين التركة الكولونيالية ورحلة البحث عن الهوية، إضافات- المجلة العربية لعلم الاجتماع، العدد: 15 - بيروت ، لبنان: صيف 2011، ص 103 .
- 10- البخاري حمادة. المرجع سبق ذكره، ص 87.
- 11- بوخريسة بوبكر. نفس المرجع السابق، ص 104
- 12- محمد فاضل الجمالي- آفاق التربية الحديثة في البلاد النامية، الدار التونسية للنشر، ط1، تونس: 1968، ص ص. 36-37
- 13- حامد عمار. الجامعة بين الرسالة والمؤسسة- دراسات في التربية والثقافة، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط1، القاهرة، مصر: 1999، ص ص. 55-56
- 14- طاهر محمد بشلوش. التحولات الاجتماعية والاقتصادية وأثرها على القيم في المجتمع الجزائري 1967 - 1999 دراسة ميدانية تحليلية لعينة من الشباب الجامعي، دار بن مرابط، ط1، الجزائر: 2008، ص 166
- 15- تشارس فرانكل. نظرات في التعليم الجامعي - بحوث لفريق من كبار الجامعيين الأمريكيين، دار المعرفة، ترجمة: د. محمد توفيق رمزي وآخرون، نيويورك: 1963، ص ص. 38 - 39
- 16- محمد فاضل الجمالي. نفس المرجع السابق، ص 85
- 17- طاهر محمد بشلوش. المرجع سبق ذكره، ص 167
- 18- Djamel Guerid . Repenser L'université, éd Al arek ? Oran 26 27 :2012 , p90
- 19 - Louis Dumont. Homo Hierchicus – Essais sur les systèmes castes, éd Gallimard, URSS : 1966, p64
- 20- مصطفى حداد ، نورية بن غبريط . الجزائر : حوصلة المعارف في العلوم الاجتماعية والإنسانية 1954 - 2004 رؤى حول الماضي ورهانات الذاكرة في الحاضر، إنسانيات / crasc ، عدد 39 - 40 جوان - جانفي : 2008 ، ص ص. 26 - 27
- 21 - محمد مادوي . السوسيولوجيا المغاربية : من الرفض إلي إعادة الاعتبار makryzya@yahoo.fr ص 193
- 22- شوقي جلال . الفكر العربي وسوسيولوجيا الفشل - www.Mohamed Raeca.com ص 142
- 23- وجيه كوثراني. البحث والباحث والمؤسسة الأكاديمية- إشكالية الموقع والدور، ب ط : 2013، ص 32
- 24- M'ohamed bou khobza. Octobre 88) evolution ou rupture! edition bouchene, Alger: 1991, p39
- 25- ليان سبورك. أي مستقبل لعلم الاجتماع، في سبيل البحث عن معنى وفهم العالم الاجتماعي، كلمة ومجد للنشر ، ترجمة : د. حسن منصور الحاج، الإمارات: 2009، ص ص. 27- 28

- 26- جون سكوت. علم الاجتماع - المفاهيم الأساسية، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط1، ترجمة: محمد عثمان، بيروت، لبنان: 1999. ص363
- 27- وجيه كوثراني. المرجع سبق ذكره، ص35
- 28- عباس فاضل البياتي . علم الاجتماع- دراسة تحليلية للنشأة والتطور، دارغيداء للنشر، ط1، الموصل، العراق: 2012، ص158
- 29- وجيه كوثراني. المرجع سبق ذكره، ص35
- 30- محمد شوقي الزين . ميشال دوسارتو- منطق الممارسات وذكاء الاستعمالات - مدخل إلى قراءة تداولية، دار الروافد الثقافية، ط1، بيروت، لبنان: 2013، ص128
- 31- بيار بورديو. الانطولوجيا السياسية عند مارتن هيدجر، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، ترجمة د. سعيد العلمي، العدد 938، القاهرة، مصر : 2005، ص128
- 32- ستيفان شوفالييه، كريستيان شوفيري. معجم بورديو، ديوان المطبوعات الجامعية، ترجمة: د. سليم حداد، الجزائر: 1989، ص231
- 33- سعيد إسماعيل على. التعليم الجامعي في الوطن العربي، دار الفكر العربي، ط1، الكتاب السنوي في التربية وعلم النفس، المجلد 13 ، القاهرة ، مصر: 1987، ص330